

✱ سورة المطففين

✱ علوم السورة.

(1) اسمها:

عند العلماء: تسمى سورة المطففين، سَمَّاهَا البخاري في صحيحه: سورة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، وهذه تسمية بأول آية من آيات السورة.

بعض المفسرين: سَمَّاهَا: سورة التطفيف.

ولا يُعرف لها غير هذا من الأسماء، فكلها تدور حول هذا الاسم (المطففين).

(2) سبب النزول:

النبى ﷺ لما جاء إلى المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله هذه السورة لتعظهم وتحذرهم من مغبة ظلم العباد في هذا الشيء الطفيف الذي يؤخذ من حقوقهم

(3) هل هي مكية أو مدنية؟

اختلف فيها على ثلاثة أقوال:

❖ القول الأول:

من العلماء من قال: إنها مكية، نزلت في آخر العهد المكي، وذلك لأن جوها وحديثها يتحدث عن موضوعات يوم القيامة، وذكر فيه قول الله - عز وجل: ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهذا إنما قيل للنبي ﷺ في مكة، وأيضاً جاء فيها قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿، فهذه آيات تتحدث عن مشاهد كانت تقع لرسول الله ﷺ في مكة.

❖ القول الثاني:

جمهور المفسرين على أن السور مدنية، ومنهم حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنه - يرون: أنها نزلت في مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة. وابن عباس يرى أن السورة مدنية إلا الآيات الأخيرة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿، إلى آخر السورة. فإن سبب النزول ورد في هذه السورة، أن النبي ﷺ لما جاء إلى المدينة وجد أهلها من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله هذه السورة لتعظهم وتحذرهم من مغبة ظلم العباد في هذا الشيء الطفيف الذي يؤخذ من حقوقهم

❖ القول الثالث:

من أهل العلم من يرى أن السورة نزلت في مهاجر النبي ﷺ بين مكة والمدينة، وإلى هذا مآل الطاهر بن عاشور في تفسيره المعروف "التحرير والتنوير" قال: وهذا هو اللائق بهذه السورة، فإن جوها جو السور المكية، ومضمونها مضمون السور المكية، وسبب نزولها يدل على أن لها ارتباطاً بالمدينة، فلعلها نزلت قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة، لأن أهل المدينة كانوا متلبسين لهذا الأمر - وهو التطفيف في المكاييل والموازين - فأراد الله أن يطهر المدينة من عمل سيء لا يليق بمجيء رسول الله ﷺ.

خلاصة:

الخطب في هذا سير، لأن كونها مكية أو مدنية لا يترتب عليه نسخ، لأنه ليس في الآيات ما يُنسخ، وكل ما في الآيات محكم ولكن من باب زيادة العلم، وليس هناك مانع من أن تكون هذه السورة نزلت في أواخر العهد المكي، وأوائل العهد المدني، وجمعت بعد ذلك. وهناك عدد من السور تجد أن فيها نفس السور المكية والسورة المدينة كسورة الحج، وسورة الحديد، وسورة المطففين.

4) مناسبة السورة لما قبلها:

هذه السورة مناسبة لسورة الانفطار، لأن سورة الانفطار جاء فيها الحديث عن الأبرار والفجار مقتضباً ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾، وفي هذه السورة أسهب في جزاء الأبرار، وفي جزاء الفجار، وبهذا تكون هذه السورة مناسبة تماماً لسورة الانفطار. ففي سورة التكويد مشاهد القيامة، وفي سورة الانفطار مشاهد القيامة بشكل مختصر، وذكر للجزاء بشكل أيضاً مختصر، كأنها مقدمة لذكر الجزاء، وفي سورة المطففين بدأ بذنب وبيّن جزاءه، ثم انتقل إلى جزاء الفجار وجزاء الأبرار بشكل مفصل، وهذا من دقائق الترتيب والتنظيم في سور القرآن.

✳ تفسير آيات السورة:

❖ المقطع الأول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾:

ويل: فيها قولان للمفسرين:

❖ **منهم من قال:** أنه وادٍ في جهنم، وهذا يستند إلى آثار، وهذه الآثار في النفس منها شيء،

❖ **منهم من قال:** كلمة تهديد ووعد، وهذا هو الأشهر في استعمالها عند العرب:

وأنا أرى أن بقاءها تهديداً مفتوحاً أكثر هيبة في النفوس من أن يكون تهديداً بشيء معين. لأن المهدّد هو الله - سبحانه وتعالى -، وكون النفس لا تدري بما هُدِّدَتْ به، وما هو الجزاء الذي ينتظرها؛ قد يكون أبلغ في ردع النفس عن التهادي في باطلها الذي تتهاون فيه.

للمطففين: المطففون: مأخوذ من التطفيف، والتطفيف هو أخذ الشيء الطفيف، يعني أخذ الشيء القليل، وذلك عندما يكيل الإنسان أو يزن شيئاً فإنه ينقص شيئاً سيراً إذا كان يبيع للناس، وإذا كان يشتري لنفسه فإنه لا يأخذ الحق الواجب له؛ وإنما يزيد عليه شيئاً طفيفاً، فهو يظلم عندما يشتري، ويظلم عندما يبيع.

لِّلْمُطَفِّفِينَ: المطففون فسّرهم وبيّنهم، وبيّن أن المقصود بهم أولئك الذي يتهاونون في هذا الشيء الطفيف في المكايل والموازين عندما يبيعون أو يشترون قال:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾:

أي إذا اكْتَالُوا على الناس: يأخذون حقهم وافيّاً، ويزيدون عليه.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾:

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾: أي كالوا للناس.

﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾: أي وزنوا للناس.

﴿يُخْسِرُونَ﴾: أي ينقصون.

فهم عند الشراء يأخذون حقهم وافيّاً وقد يزيدون، وعند البيع ينقصون من حق المشتري فلا يؤدّونهم الحق الكامل.

❖ **هل معنى (كالوهم أو وزنوهم) يعني "هم" تأكيد للواو الجماعة أم أن الضمير "هم" يعود للناس؟**

قولان لأهل العلم

الأول: معنى قوله ﴿كَالُوهُمْ﴾ و﴿وَزَنُوهُمْ﴾ أي كالواهم، ووزنواهم، "هم" تأكيد للواو الجماعة.

الثاني: معنى قوله ﴿كَالُوهُمْ﴾ و﴿وَزَنُوهُمْ﴾، أي كالواهم، الواو واو الجماعة في محل رفع فاعل، و"هم" ضمير في محل نصب مفعول به، أي كالوا

للناس، أو وزنوا للناس.

قال ابن كثير: معلقا على هذين القولين "وكلاهما متقارب".

الظاهر هو الثاني: كالوا للناس، أو وزنوا للناس، و"هم" هنا ضمير في محل نصب، لأنها لما كُتِبَتْ كُتِبَتْ: "كالوهم". فـ "هم" هنا ليست ضميرًا مؤكّدًا يعني "كالوا هم"، وإنما "كالوهم" كالوا للناس، لو كان ضميرًا مؤكّدًا لكانت منفصلة عن الكلمة، ولكتبت "كالوا هم" إذن: مما نستعين به في الرسم لمعرفة القول الصحيح، فالرسم هنا -رسم المصحف- يبيّن لنا القول الصحيح في هذه الآية، وهو: أن "هم" ضمير في محل نصب.

ما الفرق بين الكيل والوزن؟

ما يراد به معرفة الحجم مكيال، وما يُراد به قياس الثقل ميزان.

مثلاً: اللتر مكيال، لأنه يوضع فيه اللبن، والعسل، والماء، وميزانه مختلف.

ولذلك النبي ﷺ بيّن أن المكيال مكيال أهل المدينة، لأنهم أهل زروع. وأن الميزان ميزان أهل مكة، لأنهم أهل تجارة، وذهب، وفضة. **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ:** لما كان هذا الأمر معلوم أنه أمر سيء وخبيث، وأن العقول السليمة والفطر السليمة تنكره لم يتحدث عن تحريمه؛ وإنما تحدّث مباشرة عن جزائه، ولم يتحدث عن الدلائل على وجه كونه محرّمًا، لأن هذا الأمر تعرفه النفوس كلها أنه من الباطل، فانت لا ترضى -ولو لم تعلم الشرع- أي إذا كلّت لك أو وزنّت لك أي أنقصك في حقك، فكل النفوس تأبى ذلك وتراه من الظلم ولذلك قال:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

فوعظهم بالموقف الذي يكون بين يدي الله، وفيه توزن الأعمال، وفيه يخاف الإنسان، وفيه يرجع الإنسان إلى ما قدّم ويتأكد مما عمل.

* وقفات مع المقطع الأول:

الوقف الأولى

بيان التطفيف وضرره، وأن الله عذّب به قوم شعيب والسبب أنهم كانوا يطففون ويخسرون في المكيال والميزان، وأنزل الله -عز وجل- فيهم آيات في سور معدودة، منها سورة هود، ومنها ما في سورة الشعراء، وغيرها من سور القرآن، ويبيّن الله سبب عذابهم، فهم قوم قد كذبوا نبي الله، وأشركوا مع الله، وكان من أعظم المشكلات التي وقعوا فيها: أنهم كانوا يطففون في المكايل والموازين.

الوقف الثانية:

أن التطفيف الذي يكون في المكايل والموازين له صور كثيرة جدًّا، وليس مقتصرًا فقط على أن تزيد أو تنقص في المكيال والميزان عندما تزن للناس. فقد تباع سلعة يُقال أن وزنها كذا، وعندما تزنها في الميزان، أو تفرغها من العبوة الموجودة فيها تجد أنها أقل مما هو عليه.

مثلاً: أكياس الأرز التي تباع في الأسواق، مكتوب عليها 45 كيلو، إذا وزنته ستجد أنه وصل إلى ثمانية وثلاثين كيلو. فالذي وضع في الكيس شيئًا وضعه وهو بحالة رطبة، ثم مع الأيام يجف، فيخف وزنه، وإذا خفّ وزنه وصل إلى هذه الحالة فينقص سبعة كيلو. فكل زيادة على المستهلك، أو أخذ مال به غير حق وإن كانت قليلة فإنها من الظلم، وهي من التطفيف.

الوقف الثالثة :

أن التطفيف إذا كان في القليل يحاسب الله العباد عليه ويخدّرهم منه؛ إذن فما بالك بمن يأخذ الكثير، الذي يعتدي على أموال الناس ويسلبها منهم سواء كانت هذه الأموال شيئًا في جيوبهم وتملكوه وحازوه، أو شيئًا من بيت مال المسلمين.

فهؤلاء العَمَّال والموظفون والمسؤولون الذين يتهاونون في بيت المال فيأخذون ما لا يحلُّ لهم هم أشدُّ حالًا، وأعظم سوءً من هؤلاء الذين توعدهم الله بقوله ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾

النبي ﷺ عندما وقف في يوم عرفة، قال معلناً أمام الناس: ﴿إِنْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا﴾، وعندما وقف مع المسلمين في يوم القَرِّ قال لهم مثل ذلك، وأكد عليهم تأكيداً شديداً، ليبين أن هذا من أعظم الذنوب عند الله - سبحانه وتعالى - وهو أن يعتدي الإنسان على أموال الناس، أو دمائهم، أو أعراضهم.

الوقفه الرابعة:

بعض الناس يظن أن التطفيف يقتصر على القضايا المالية، والحقيقة أن القضايا المالية تقع فيها التطفيف ويعلمه كل الناس، لكن التطفيف أيضاً يقع في أمور أخرى، مثل الحكم على الناس، فعندما تحكم على صاحبك الذي تحبه نزيد في مدحه، وتغض الطرف عن مثالبه، وما عنده من نقص؛ فهذا تطفيف، لأنك زدت عن الحد المطلوب، وعندما تتحدث عن ذاك الذي لا يحترمك، أو لا تحبه، أو بينك وبينه إشكال، فإنك تنقص من حسناته وتزيد في سيئاته. وأيضاً عندما يُطلب منك أن تُقيم شيئاً ما ولك فيه هوى؛ فتزيد في التقييم، أو تنقص لأغراض شخصية؛ يُعتبر ذلك من التطفيف. وقد قال بعض العلماء المعاصرين: "هذه الآية تدل على تحريم قليل الربا، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتهاون في الربا، لا قليله ولا كثيرة".

❖ المقطع الثاني:

﴿كَلَّا إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي سَجِينٍ﴾:

كَلَّا: هنا بمعنى: حقاً، لأنه لم يسبقها كلام يُنكر، لأنه وعيد للمطففين، وهذا ما اختاره ابن كثير - رحمه الله تعالى.

كِتَابُ الْفُجَّارِ: بدأ بكتاب الفجار لأن المقام مقام وعيد، ولأن سور الانفطار انتهت بالحديث عن الفجار، فافتتحت هذه السورة أيضاً بالحديث عنهم، ليكون الكلام متسقاً ومتصلاً.

إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ: أي مآلهم، ومصيرهم، وكتاب أعمالهم.

الفجار: إذا جاء اسم "الفجار" مستقلاً فإنه يشمل:

الأول: فجور في الاعتقاد: بتكذيب الرسل، تكذيب الآيات، الشرك بالله - عز وجل.

الثاني: فجور في العمل: مثل ما ورد في أول السورة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، ومثل ارتكاب المحرمات

سَجِين: سجين، صيغة فعيل هذه مأخوذة في الأصل من: السَّجَن، فالكتاب في مكان يتَّسم بأنه سجن، وهذا ينتظم وصفين:

الأول: السفول، أن يكون سافلاً.

الثاني: الضيق.

وهكذا كتاب الفجار، كما ورد في حديث البراء بن عازب وغيره: ﴿أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةُ﴾. ونحن لا نعلم أين هذه الأرض السابعة، لكن الله - سبحانه وتعالى - يعلمها، ونعلم أنها مكانٌ سيء وضيق، وأنه مكان سافل، لا يليق إلا بهؤلاء الفجار.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾:

هذا ليس سؤالاً عن السجين بقدر ما هو تهويل وتعظيم للسجين.

فالله - عز وجل - يعظم هذا الكتاب، وهذا المال، فيقول: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾، لكي تسبح بفكرك في هول هذا المكان الذي سيكون مآلاً لهؤلاء الفجار ولكتابهم.

﴿كِتَابُ مَرْقُومٍ﴾:

أي مكتوب، مرقوم بخط لا يُمحى، فلا يُزاد فيه، ولا يُنقص منه

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾:

ويل: فيها قولين:

الأول: وادٍ في جهنم.

الثاني: كلمة تهديد ووعيد، وهذا هو الظاهر من استعمالها في اللغة، خصوصاً وأنَّ الأحاديث الواردة في بيان أنَّ الويل وادٍ في جهنم لا ترقى إلى درجة الصحة.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ: أي في ذلك اليوم ويل لمن كَذَّبَ بالله، وبآياته، وبرسله، كَذَّبَ بهذا القرآن الذي أوحى إلى رسول الله ﷺ من دون بيَّنة ومن دون أن يكون معه حجة وسُلطان

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾:

هنا بيَّن هذا التكذيب وهو التكذيب بيوم الدين وهو فرع عن التكذيب بالله رب العالمين، وبرسول الله ﷺ، وبآيات الله الموحاة إلى رسول الله ﷺ

الدين: كلمة تأتي بمعانٍ متعددة:

الأول: منها الدين بمعنى الملة.

الثاني: منها الدين بمعنى الجزاء والحساب، كما تقول العرب: "كما تدين تدان"، وكما في الأثر: "الكَيْسُ مَنْ دان نفسه" أي حاسبها وجازاها.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾:

معتد: هو الذي يتعدَّى الحدَّ.

إما في الاعتقاد: بالشرك بالله - عز وجل - أو تعظيم مخلوق وجعل مقامه كمقام الله، أو الاعتداء على الله بأن يُجعل محله كمحل المخلوقين.

أو في الأعمال: كأن يعتدي على أموال الناس بالظلم، والتطفيف، والربا، والسرقة، أو يعتدي على أعراضهم بالزنا.

أثيم: أي آثم في نفسه، فالذنوب قسمان:

➤ قسم يكون فيه اعتداء.

➤ قسم يكون مقتصر على النفس.

يعني كون الإنسان مثلاً يُسيء الظن بالمسلمين، هذا إثم. كون الإنسان ينظر إلى شيء محرم، هذا ظلم منه لنفسه، فهم إثم، أما كون يأخذ أموال الناس؛ هذا اعتداء وهذا هو الفرق بين المعتد والأثيم

بعض المفسرين: يقول "﴿مُعْتَدٍ﴾ أي في أفعاله، ﴿أَثِيمٍ﴾ في أقواله".

وهذا تقييد للفظ العام بما يحصر معناه من دون مبرر، بل ينبغي إطلاق ذلك فنقول:

الاعتداء: تجاوز الحد في الطغيان والإثم، سواء الاعتقادي، أو القولي، أو الفعلي.

والإثم: أن تنتهك المحرم وتأتي به من غير أن يكون في ذلك اعتداء على الغير، أو تعدُّ على الحدِّ.

﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾:

إذا تُلِيَتْ عليه آيات القرآن.

الآيات: ليس المقصود بها آيات الله - عز وجل - التي في الكون، لأنه قال قبلها ﴿تَتْلَى﴾، فكلمة "تتلى" تبين لنا معنى "الآيات"، وأن المقصود هنا هو الآيات الموحى بها، لأن آيات الله آيات كونيّة، وآيات شرعية.

الآيات الشرعية: هي هذا الوحي الذي أوحاه الله - سبحانه وتعالى - إلى رسوله.

الآيات الكونية: هي الشمس، والقمر، والسماء، والأرض.

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

من اعتدائه وإثمه يرد هذه الآيات ببغي وعدوان، ومن دون حجة وبرهان، فيقول: هذه أساطير الأولين.

الأساطير: معروف أنها مختلفة، وأنها تفتقد إلى المصداقية والصحة، وأنها في الغالب تكون أقرب إلى الخرافة، يعني الشيء غير المعقول.

﴿كَأَلَّ بَلٌّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

كلا: هنا بمعنى الردع والزجر، لأن السياق الذي سبق فيه شيء يُرد، لأنهم قالوا: أساطير الأولين. قال الله: كلا، ليس الأمر كما تقولون.

بَلٌّ: هذه للإضراب، والإضراب نوعان:

الأول: إضراب إبطالي:

مثال: (ما جاء محمد بل علي) هذا إضراب إبطالي، لأنك نفيت الأول وأثبتت الثاني.

الثاني: إضراب انتقالي:

مثال: (جاء محمد وسعد بل جاء علي أيضاً). فهذا إضراب، لكنه انتقالي، يعني تنتقل من جملة إلى جملة.

كَلَّا بَلٌّ: هذا إضراب، لكنه إبطالي، لإبطال كلامهم الذي تقدّم.

رَانَ: أي غطّى.

الران: مأخوذ من الرين، وهو الغطاء، أي الذي كانوا يكسبونه غطّى على قلوبهم، فعملهم السيء قد غطّى على قلوبهم فهم لا يعقلون، فبسبب ذنوبهم ومعاصيهم يُغطّي الله قلوبهم، ويحببها عن سماع الحق وعن قبوله.

العلماء يقولون: الذي يغطّي على القلب أشياء:

الأول: الغين

قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّهُ لِيُغَاثَ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾

"لِيُغَاثَ عَلَى قَلْبِي" يعني يصيبه شيء لطيف جداً من الحجاب بسبب مكابدة الدنيا، وما يتصل بأعمال الإنسان وحياته، وهو في الغالب ليس من الذنوب

الثاني: الران

وهو الحجاب الكثيف الذي يمنع وصول الحق والاستماع إليه والاستجابة له.

ران على قلوبهم: والرّين يكون على القلب، وليس على الأذن، ولا على البصر، ولا على اللسان.

﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾:

كَلَّا: هذا أيضاً ردع وزجر له وذلك لتأكيد هذا الردع والزجر لشدة ما قالوا، لأنهم قالوا في كلام الله قولاً عظيماً، قالوا: أساطير الأولين.

لَمَحْجُوبُونَ: أي في يوم القيامة سيحبسون عن رؤية الله، لأنهم ما فتحوا أعينهم لرؤية آياته في الدنيا، فيجازون على ذلك بأنهم يوم القيامة يُحبسون عن

رؤية ربهم - سبحانه وتعالى.

الإمام الشافعي: استدلل بهذه الآية على أمر يُعتبر من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو رؤية وجه الله في الآخرة للمؤمنين.

قال: "إذا كان هؤلاء قد تَوَعَّدُوا على ما فعلوا بأنهم سيحجبون عن الله؛ دل ذلك على أن هناك قومًا وهم المؤمنون سيرون الله - سبحانه وتعالى - وسيكون ذلك من صميم نعيمهم"، وقد جاء بمنطوق هذا المفهوم آيات في القرآن، منها قول الله - عز وجل: ﴿وَجُودُهُ يُومِئِدُ نَاصِرَةً * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ **﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾**:

أي بعد حجبهم عن الله في يوم الموقف يُصلون الجحيم.

صالوا: أي يُدخلون النار فيُصلون بحرّها، ويُقاسون عذابها، إذن يُجمع لهم في كلمة "صالوا" من الوصول والصليّ، فهم يُدخلون النار ويُصلون بها. **﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾**:

إذا أدخلوا النار قيل لهم: هذا الذي كنتم تكذبون بحصوله وتحققه، انظروا إليه. وهذا يُقال لهم على وجه التبكيت والاستهزاء بهم، جزاء ما استهزؤوا بآيات الله - عز وجل.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ﴾:

كلا: جاءت وليس قبلها كلام يُنفى أو يُرد عليه، ولذلك تكون بمعنى حقًا.

إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ: أي كتاب أعمالهم، ومآلهم، ومصيرهم **﴿لَفِي عَلَيِّنَ﴾**، وجاء بمؤكدات: "إِنَّ"، و"لَفِي"، وكونه جملة اسمية، ثلاث مؤكدات، لأنه يُخاطب قومًا منكرين.

الأبرار: جمع برّ، والبرّ: هو مَنْ يتوسّع في فعل الخير، فعنده صلاة، وصوم، زكاة، حج، عمرة، ذكرّ، قراءة قرآن، بر الوالدين، صلة رحم، متوسّع في أفعال الخير، سواء في أجناسها، أو سواء في كل واحدٍ منها يتوسّع فيه

مثلا: في صلة الرحم لا يقتصر على إخوانه وأخواته فقط؛ بل على أبناء عمّه، وأبناء خاله، وعلى أقاربه، ومَنْ حوله، وفي برّه لوالديه لا يقتصر على أبيه وأمه؛ بل على جدّه أبي أبيه، وجدّه أبي أمّه، وجدته أمّ أبيه، وجدته أمّ أمّه، ومَنْ فوقهم يدعو لهم، يصلهم، يعطيهم، يقضي حاجاتهم. في الصلاة لا يكتفي بالصلوات الخمس؛ بل إنه يصلي الصلوات الخمس، ويأتي بالنوافل.

لَفِي عَلَيِّنَ: أي لفي علوّ، وهذه الكلمة اختلف فيها السلف:

❖ **منهم مَنْ قال:** (لَفِي عَلَيِّنَ) أي في السماء السابعة.

❖ **منهم مَنْ قال:** عند قائمة العرش اليمنى.

❖ **منهم مَنْ قال:** عند سدرة المنتهى.

❖ **منهم مَنْ قال:** في السماء.

الصحيح: أن "عليين" مأخوذة من العلو، أي في علوّ عند الله - سبحانه وتعالى -، وقد جاء في حديث البراء الطويل، قال: **﴿اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة﴾** فهذا يدل على أن عليين في السماء السابعة.

كتابهم: أي مآلهم وكتاب أعمالهم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ﴾:

هذا ليس على وجه الاستفهام المجرد الذي يُراد به الجواب؛ إنما يُراد به التفخيم، والتعظيم، ولفت الانتباه، وشدّ الذهن إلى معرفة الأمر العظيم.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾:

أي هؤلاء كُتِبَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ كِتَابَةً لَا تُمَحَّى وَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ، مَرْقُومَةٌ رَقْمًا كَمَا يُكْتَبُ وَيُنْقَشُ عَلَى الْحِجَارَةِ.
﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾:

أي يحضره من أهل كل سماء مقربوها.

المقربون: هم ملائكة الله - سبحانه وتعالى - الذي يُقَرِّبُهُمُ اللهُ وَيُذْنِبُهُمْ. يحضرونه ليُباركوه، ليشهدوا عليه، وليحصل للمؤمن بشهود هؤلاء السعادة والسرور.

❖ المقطع الثالث:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

وهذه على طريقة القرآن في كونه إذا ذكر الترهيب؛ يذكر بعده الترخيب. وإذا ذكر الوعيد؛ يذكر بعده الوعد، وهكذا العكس. إذا ذكر الوعد؛ ذكر بعده الوعيد. إذا ذكر الجنة؛ ذكره بعده النار. إذا ذكر الترخيب؛ ذكر بعده الترهيب، لأن القرآن مثالي.

مثنوي: يعني تُثْنَى فيه الأخبار، والوعد والوعيد، والأحكام، والقصص، وتُكرَّر وتُعاد، ويؤتى بها على صفة لا تحمل الإنسان على القنوط ولا على الرجاء الذي يُخرجه عن الخوف، فهو دائماً بين جناحين: جناح الخوف، وجناح الرجاء.

لَفِي نَعِيمٍ: وقد جاء بمؤكدات:

الأول: "إِنَّ"، والثاني: "لَفِي"، والثالث: الجملة الاسمية، لأنه يتحدث مع قوم منكبين.

نَعِيمٍ: هذا النعيم هو نعيم الجنة، لكن لا يمنع أن نُبْقِيَ الآية على إطلاقها، فنقول: إذا كان هذا نعيمهم في الجنة؛ فلهم نعيمٌ قبله يُعْتَبَرُ تَقْدِماً له، وهو نعيمهم في الدنيا، نعيم الإيمان، وطيب النفس، واليقين، ونعيم في القبر، عندما يُدْخَلُ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ، وَيُفْسَحَ لَهُ مَدْبَرُهُ، وَيُفْتَحَ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَرِيحَانِهَا.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾:

الأرائك: هي: السرر، لكنها سررٌ مُزَيَّنَةٌ وَمُزَخْرَفَةٌ، ليست سريراً فقط؛ بل عليها ستور مرخاة، فلا تُسَمَّى أريكة إلا إذا كانت في الحجلة، والحجلة مثل سرير العروس، يوضع فوقها ستور مرخاة، وأشياء تُجَمَّلُهَا وتجعلها في غاية البهاء والجمال.

يَنْظُرُونَ: هل ينظرون إلى نعيمهم؟ أو ينظرون إلى بعضهم؟ أو ينظرون إلى ربهم؟ أو ينظرون إلى الكفار وهم في نار جهنم يكتونون بنارها؟
نقول: ما دام اللفظ مطلقاً في القرآن فنبقيه على إطلاقه.

مَنْ قَالَ: ينظرون إلى نعيمهم؛ فهو صحيح.

مَنْ قَالَ: ينظرون إلى بعضهم كما قال الله ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ فهو صحيح.

مَنْ قَالَ: ينظرون إلى ربهم؛ قلنا صحيح، لأن في الآيات المتقدمة واللاحقة ما يدل على ذلك.

مَنْ قَالَ: ينظرون إلى إخوانهم الذين كانوا في الدنيا معهم، وكانوا على غير دينهم، ينظرون إليهم وهم في النار يصرخون من عذابها؛ فهو صحيح، لأنه ورد في سورة الصافات ما يدل على ذلك.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾:

يعني ترى على وجوههم أثر النعمة، وأثر السرور والحبور، ويُعرف دائماً سرور الإنسان وحبوره، بما يرى على وجهه.

يقول عثمان بن عفان: "وما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحة وجهه وفلتات لسانه".

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾:

بدأ الآن في تفصيل النعيم.

﴿يُسْقَوْنَ﴾: لم يقل: "يستقون" لأنهم يطوف عليهم غلمان يأتونهم بالماء، يأتونهم بالطعام، لأن الجنة دار لا عناء فيها ولا تعب.

﴿مِنْ رَحِيقٍ﴾: الرحيق هو: الخمر، رحيق الجنة خمرها.

﴿مَخْتُومٍ﴾: هذه الكلمة وقع فيها خلاف بين السلف على ثلاثة أقوال، وهي قريب من اختلاف التنوع، لكن عند التأمل سنجد أن أحدها هو الأولى بالمعنى.

القول الأول:

خاتمته مسك، يعني آخر شيء فيه مسك، فالمؤمن عندما يشرب من خمر الجنة يجده بخلاف خمر الدنيا، فخمر الدنيا: (منتنة، مؤذية، يكون غالب ما فيها من الخثالة تكون في أسفلها)، أما خمر الجنة فإنها طيبة الريح، وأطيب ما فيها يكون في آخرها، إذا وصل المؤمن لآخرها فاحت عليه رائحة المسك، فأضافها أو شربها بشغف. وهذا القول هو الأولى

القول الثاني:

مختوم أي ممزوج. ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي ممزوج بالمسك.

إذا قلنا: ممزوج؛ فإننا نجد أن في الآيات تكراراً، لأنه قال: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، يعني ممزوج بالمسك وقال ﴿وَمِزَاجُهُ﴾، فنقول: كيف يقول ممزوج بالمسك، ممزوج بالتسليم، هذا المعنى ليس صحيحاً.

القول الثالث:

مختوم أي عليه طابع وخاتم من مسك.

إذا قلنا: ما طبع عليه، وختم عليه. الذي نعلمه نحن أن أهل الجنة يستقون من الأنهار، ويشربون منها شيئاً طازجاً، وليس في الدنانير أو في الجرار أو غيرها، وهذا ينفي أن يكون المعنى: ما طبع عليه، وإن كان ورد في بعض الأحاديث أن من خمر الجنة ما يكون في الدنانير.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾:

في هذه الآية حث الله عباده على السعي لهذا النعيم بالإيمان، والعمل الصالح، واتقاء مظالم العباد.

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾: أي في مثل هذا النعيم

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾: ليتسابق أهل السباق، ولا تنتظر أنك تقول: والله الحمد لله أنا أصلي، أنا لست مثل فلان، فلان ما يصلي في السنة إلا مرة، أو ما

يحضر إلا جمعة، أنا أحسن منه حالاً، أصلي كل يوم مرتين ثلاث. هذه ليست حال المنافس.

حال المنافس التي أمر الله أن نكون عليها: هو ذلك الرجل الذي لا يكاد يُبصر أحداً تقدّم عليها إلا سعى بجهد في أن يسبقه، وألا يكون خلفه.

﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾:

﴿وَمِزَاجُهُ﴾: أي خلطه، مخلوط بالتسليم.

التسليم: هو أعلى أشربة الجنة، ومنه سُمي تسنيماً، لأن السنام هو العالي من الشيء، كما هو سنام البعير.

﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾: أي من شراب عالٍ في الجنة، يُخلط مع الرحيق.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾:

﴿عَيْنًا﴾: أي أن التسليم هذا عين.

يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ: فالمقربون يشربون صرفاً غير ممزوج من التسنيم، أما الأبرار فإنهم يشربون من الرَّحِيقِ المختوم ممزوجاً بالتسنيم، لأن منصبهم ومقامهم في الجنة دون منصب المقربين.

يَشْرَبُ بِهَا: العادة أننا نقول: نشرب منها. تشرب من العين وليس بالعين، وهذا الأسلوب يسمى أسلوب التضمين: التضمين: وهو أن تضمّن فعلاً معنى فعلٍ آخر، يعني يكون الظاهر فعل، ووراءه فعل آخر، نعرفه بحرف الجر الذي يناسب الفعل الآخر. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ: يعني يلتذُّ بها المقربون، لأن المقربين في الجنة لا يحتاجون إلى الشرب لسدِّ العطش، ليس عندهم أصلاً في الجنة عطش، وليسوا بحاجة إلى ماء أو خمر يرويه من العطش، ولكنهم يشربون ليتلذذوا، ويأكلون ليس ليسدُّوا الجوع، وإنما ليتلذذوا.

❖ المقطع الرابع:

وهو مقطع يعود بنا إلى سياق الترهيب والترعيب، وجوَّ السورة الذي جاءت به، سياق التهديد والوعيد لأولئك الذين أجرموا، سيذكر حالهم في الدنيا ماذا يفعلون بالمؤمنين، وحالهم في الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا﴾:

أي في الدنيا.

﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾:

يستهزؤون ويسخرون.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾:

يشيرون بالأيدي، بالشفاه، بالأعين، للاستهزاء والسخرية والانتقاص من أولئك المؤمنين.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾:

إذا رجعوا إلى أهلهم.

﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾:

أي متعجبين، أو مستهزئين ساخرين بأولئك الذين رأوهم من المؤمنين، فلا شغل لهم في ليلهم ونهارهم إلا هؤلاء.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾:

رأوهم في المجالس، أو في الأماكن، أو في وسائل الإعلام.

﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾:

بأي صورة من صور الضلال، كأن يقولوا: هؤلاء رجعيون، هؤلاء إرهابيون، هؤلاء متزمتون، إلى آخره من العبارات التي هي بمعنى كلمة "الضالون"

لأن المقصود المعنى، وليس المقصود اللفظ.

﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾:

لم يجعل الله هؤلاء حافِظين لأعمال هؤلاء، انشغلوا بأنفسكم، صحَّحوا أوضاعكم، انظروا إلى أعمالكم، تركتم الحقَّ، وسخرتم بالمؤمنين.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾:

فَالْيَوْمَ: الذي هو يوم القيامة، يوم يكون الناس فيه أبراراً وفجَّاراً، هؤلاء في الجحيم وهؤلاء في النعيم.

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ: كان هؤلاء في الدنيا يضحكون، إذن تنقلب الآية في الآخرة، فيضحك المؤمنون من الكفار كما ضحك الكفار في الدنيا من المؤمنين.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾:

يعني: والمؤمنون جالسون على الأرائك وهم ينظرون إلى الكفار فيضحكون منهم.

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

استفهام للتقرير، "تؤيب" بمعنى: جوزي. يعني هل جوزي.

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: نعم لقد جوزي الكفار ما كانوا يفعلون، وأخذوا حظهم من العذاب جزاءً وفاقاً، لم يظلمهم الله - سبحانه وتعالى - شيئاً من أعمالهم.